مصراته في مجلة المصور الفرنسية 1912

د. فتحي محمد اميمه
أستاذ مشارك علوم سياسية وعلاقات دولية، جامعة مصراته

أ. إبراهيم علي الزرقاني
ماجستير علوم سياسية وعلاقات دولية

الكلمات المفتاحية
الاحتلال- مصراتة – الحرب – مجلة المصور الفرنسية.

الملخص

في الوقت الذي كانت فيه الصحف الإيطالية تنشر أخباراً عن الليبيين تفيد بترحيبهم بالتدخل الإيطالي في بلادهم، أرسلت مجلة المصور الفرنسية جون ريمون في السابع عشر من يناير عام 1912م مراسلاً حربياً، نشر مقالاته فيها عن سير المعارك وعن المدن الليبية ، ينطلق هذا البحث من التساؤل الاتي: ماذا رأي هذا المراسل، وما الذي نقله، وما الذي نشرته المجلة ؟

يتمثل الحد الزمني في الفترة من شهر يناير إلى شهر مايو سنة 1912، وهي فترة وجود هذا المراسل في الأراضي الليبية، أما الحد المكاني فتمثل في مدينة مصراتة، وهي عنوان البحث، أي محاول استخلاص ما كتبه المراسل عن مدينة مصراتة.

ثم تقسيم البحث إلى مقدمة ومطلبين: حمل الأول عنوان مجلة المصور ومراسلها الحربي إلى ليبيا، والمبحث الثاني بعنوان مصراتة بقلم جون ريمون (المراسل الحربي)، وخلاصة واستنتاجات من خلال تحليل ما كتبه المراسل.

مقدمة:

لعبت مصراته دوراً مهماً في حركة الجهاد - شأنها في ذلك شأن بقية المدن الليبية الأخرى- منذ بداية الغزو الايطالي لليبيا، إذ شكلت قاعدة بحرية مهمة لتلقي العون الحربي والامدادات العسكرية لحركة المقاومة التي أبداها الشعب الليبي حول مدينة طرابلس وأطالت في عمرها ، حيث كان ذلك من الأسباب التي جعلت السلطات الايطالية تسعى إلى العمل حثيثا للاستيلاء على مصراته منذ الأيام الاولى للغزو، لولا تلك المقاومة العنيفة التي واجهتها قواتها حول مدينة طرابلس، حيث كانت مصراته من الأهداف الرئيسية والمهمة للعدو الايطالي، إذ سارعت القوات الايطالية إلى احتلال مصراته في يونية 1912م، لقطع الامدادات عن المجاهدين، ومن ثم تكون قاعدة انطلاق لعملياتها الحربية في عمق الأراضي الليبية نحو فزان، وتحكمها في القطاع الشرقي من طرابلس إلى خليج سرت ، واعتبارها من أكثر المناطق سكانا، ومصدرا لبعض الثروات. (القمودي، 2009، ص. 104)

وفي هذا الجانب يشير الكاتب الطاهر الزاوي في كتابه جهاد الأبطال في طرابلس الغرب: أن مصراته هي مركز الحركة الوطنية الطرابلسية ومنبع قوتها، وقد اثبتت التجارب وتقلبات الأحوال في طرابلس أن حياة الحركة الوطنية فيها رهن بوجود مصراته في يد العرب، وما خرجت مرة من أيديهم إلا وانقطع الجهاد من طرابلس. (الزواوي، 2004، ص. 454)

في مرحلة التمهيد للغزو، توسعت الصحافة الايطالية في ادعاء بأن الاهالي سوف يرحبون بالتدخل الايطالي، حيث زعمت صحيفة صقلية (di Sicilia) في سبتمبر 1911 بأن سكان طرابلس يفضلون الايطاليين ... لن يكون هناك اعتراض على قيام اجنبي باحتلال أراضي عربية، ونشرت صحيفة لاتريبيونا (LaTribune) تحت عنوان أرض الميعاد ، بأن روح العداء العربية خرافة تركية. (رايت، 2013، ص. 273)

في الوقت الدي كانت فيه الصحافة الإيطالية تنشر أخباراً عن الليبيين بأنهم يفضلون الإيطاليين، ولن تكون هناك مقاومة من الشعب الليبي، وأن دخولهم إلى ليبيا سيكون مجرد نزهة بحرية لقواتهم، ودلك بغية رفع الروح المعنوية لقواتهم وتوجيه الراي العام في إيطاليا واقناعه بضرورة السيطرة على ليبيا، أرسلت مجلة المصور الفرنسية مراسل حربي لتغطية الحرب في ليبيا ونقل ما يجري على الأرض الليبية، فمادا رأي وما نقل هذا المراسل، وما الذي نشرته المجلة؟

يتمثل الحد الزمني للبحث في سنة 1912، وتحديداً من شهر يناير إلى شهر مايو وهي الفترة التي تواجد فيها المراسل على الأراضي الليبية، أما الحد المكاني فيتمثل في مدينة مصراته وهي عنوان بحثنا، حيث كتب المراسل عن كل المدن الليبية التي زارها، وحاولنا أن نستخلص ما كتبه عن مدينة مصراته تحديداً.

المطلب الأول: مجلة المصور ومراسلها الحربي إلى ليبيا.

مجلة المصور (Lillustration) أسبوعية باريسية أنشئت سنة 1843م، وظلت أعدادها تصدر تباعاً حتى قاربت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء، حيث اقفلت أبوابها واحتجبت عن الصدور نهائياً سنة 1944م، كانت تصدر اثنان وخمسون عدد في السنة من بينها ثلاثة أعداد خاصة يرفق بها ملحق منفصل.

كانت تجمع أعدادها الصادرة خلال كل أربعة أشهر في مجلد خاص يحتوي على حوالي خمسمائة صفحة، وهي متخصصة في المواضيع والمقالات ذات الأهمية التاريخية، وهي من الحجم الكبير، وكانت توزع في بلدان أوروبا الغربية وامريكا اللاتينية، ويستدل على ذلك بأثمانها بالعملات الخاصة بالبلدان التي توزع بها. (ريمون، 1983، ص. 14)

ارسلت المجلة جون ريمون مراسلاً حربياً لها في ليبيا دخل الأراضي الليبية في 17 يناير 1912م، وغادرها إلى الأراضي المصرية في 20 مايو 1912م ، عندما اوفدت المجلة المراسل المذكور كان عمره حوالي ثلاثين سنة، وكان قبلها قد خصص جزء من حياته في دراسة الفنون الجميلة في ايطاليا بأحد اكاديمياتها الفنية، وسبق له أن قام برحلات صحفية إلى كل من الجزائر وتونس وتركيا والحبشة والصومال ومصر وسوريا وفلسطين، ولم يكن جون ريمون يتحدث الإنجليزية ولا العربية ولا التركية؛ لهذا اصطحب معه مترجم جزائري يسمي العلمي عليش وهو شاب درس في المدرسة التجارية بمدينة الجزائر، وابوه قائد جزائري، يصفه جون ريمون بالنشاط والذكاء والاخلاص وأنه أدى له الكثير من الخدمات.

عدم إجادة جون ريمون للغة العربية؛ إلا أنه كانت له معرفة بالثقافة العربية وحضارة العرب وتاريخهم، وكان ملماً الماماً كبيراً بالحياة العربية والإسلامية في المشرق والمغرب.

نقل الصحفي الاحداث بأمانة ودقة حتى وُصف بأنه متعاطف مع الليبيين، مما أثار عليه ثائرة الصحافة الإيطالية، فحملت عليه صحيفة ستامبا الصادرة في تورينو، وجريدة الماتينو الصادرة في نابولي.

وضعت هذه المقالات بقسم الدوريات بالمكتبة الوطنية بباريس، وهو مصنف في خزائن تلك المكتبة تحت الإشارة التصنيفية رقم: LC2 1 549 ، تم نشرها الصحفي جون ريمون في كتاب سنة 1913م، أي في السنة التي تلت زيارته لجبهات القتال في ليبيا، وقد قام بترجمته ونقله إلى العربية محمد عبدالكريم الوافي، وطبعت الطبعة الاولى منه سنة 1972م.

يقول جون ريمون لقد قال لي اولئك الذين كلفوني بهذه الرحلة الشاقة ((اذهب لتقصي حقائق وأخبار هذه الحرب المقدسة، واختلط بجموع المجاهدين الليبيين، واخترق هذه البلاد الواسعة التي لم يجسر على عبورها أي أوروبي منذ أربعين سنة .... فلعله أن يحالفك الحظ فتستكنه لنا بعض أسرار الإسلام)). (ريمون، 1984، ص. 21)

رافقه في هذه الرحلة الشاقة المترجم الجزائري واثنان من تونس أحدهم رفض الاستمرار في الرحلة وبقي في منطقة العزيزية، والثاني توقف في ترهونة بسبب المرض، واثنان من أصحاب الجمال المؤجرة من الليبيين وخادمان وموظف يسمى الصادق أفندي يعمل محاسب في دائرة الخزانة التركية، وأحد القادة العسكريين برتبة نقيب تركي اسمه شكيب أفندي، وتألفت قافلتهم من حصانين وخمسة جمال تحمل أعلاف الحيوانات.

المطلب الثاني: مصراته بقلم جون ريمون (المراسل الحربي).

زار خلال هذه الرحلة مدن الساحل الليبي وذكر دورها في الجهاد الليبي الذي لم يتوقف عنده بل وصف عادات سكانها وتقاليدهم وكرمهم، وقدم وصفاً للأراضي الليبية - سهولها ووديانها وكتبانها الرملية وشمسها- واسترسل في الحديث عنها، ومن جملة ما قال عن مصراته:

ووصلنا الى مصراته وقد بدت لي شوارع المدينة واسعة، وكان على جانبي بعضها مرصوف وقد تخللتها المصابيح، انها مدينة طرابلسية صميمة وإن كانت قد اتخذت لها طابعاً حديثاً بعض الشيء لما بها من الدواوين الحكومية وبيوت الموظفين.

أما عن مجلسها البلدي وحكومتها المحلية فيقول:

قمت بالتقاط صورة جماعية لأعضاء المجلس البلدي من أعيان المدينة بينما كانوا يعقدون جلسة بمبني البلدية؛ وكانوا يرتدون أردية وملابس فخمة جميلة، فكانوا من الأبهة وحسن المظهر إلى حد يفوق ما يمكن للمرء أن يشهده بالنسبة لأعضاء مجلس بلدي في إحدى المدن الفرنسية الصغيرة.

ويروى حادثة حصلت له، بها مدلول لعدة أمور، وهي:

تقدم مني أحد الدراويش وكان شيخاً مسناً يلبس ثياب نظيفة، وطفق يحدثني عن الإيطاليين وأفعالهم الشنيعة، وكان عميد البلدية السيد محمود بي ينصت إلى هذيان الدرويش حيث بدأ عليه الحرج والضيق الشديد، فهو من ناحية لا يريد أن ينهره، ومن ناحية أخرى يخشى أن اسخر منه، ولذا فأنه أخذ يغمزني من آن لأخر ويقول بصوت خافت ((لا تقلق لأمر ما يقول فهو درويش مخرف)).

أما عن شجاعة وبسالة أهل مصراته، فيقول:

تلك هي علاقتي مع أهل مصراته الشجعان، الذين اختبر الايطاليون أنفسهم مدي شجاعتهم وعنفهم، منذ أن اشتبكوا مع مجاهديهم في معركتي الهاني وسيدي المصري، وقد كنت اسمع عن شجاعتهم وبسالتهم في كل بقعة مررت بها في طرابلس الغرب كلها، فها قد اجتمعت بهم بنفسي؛ فصدقت كل ما قيل لي عنهم، وانني لعلى يقين أنهم مقاتلون شديدو المراس.

ويضيف بقوله: لقد التقيت بمجاهدين من عرب مصراته في كل الخطوط الأمامية المحاربة في العزيزية وفي الخمس، وهنا في مصراته نفسها، حيث وجدتهم يسهرون على حماية مدينتهم وشواطئها ليل نهار.

وعند مغادرته للمدينة يقول:

وحيث كنت ازمع السفر في صباح اليوم التالي؛ فإن عميد البلدية قد تكرم فأحضر لي بنفسه شكوة لبن وقطعة كبيرة من الجبن، كان قد بعث بها إليه رعاة قطعانه السارحة في مراعي قرب سبخة تاورغاء وقال لي: -وهو يقدم اللبن والجبنة- ((هذه هدية متواضعة جدا، إلا أنها فأل حسن ومليئة بالبركة، وطريق سفرك مباركا وأبيض كبياض هذا اللبن))، واهدي لي شيخ آخر غدارة رائعة ماركة لوبيل مغطاة كلها بطبقة من الفضة، كما اهدي إلى ترجماني الجزائري بندقية غنمها المجاهدون من الإيطاليين في إحدى المعارك، حيث يعترف العدو الإيطالي بنفسه بأن المجاهدين كانوا يغنمون الاسلحة منه، وفي هذا الجانب يقول قرايسياني: استولى المجاهدون من مخازننا ومستودعاتنا التي تركناها بسبب سرعة انسحابنا على كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة، ويقدر عدد الأسلحة التي كانت تحت تصرف الثوار في مجموعها بنحو أربعين الف بندقية، فضلا عن عدة مئات من مدافع الميتراليوزات المختلفة ونحو ثلاثين مدفعا آخر ... وأما الأسرى الطليان في منطقة مصراته بلغ؛ عددهم خمسمائة أسير أحضروا من عدة أماكن، واستغلوا في صنع الأحدية وإصلاح الأسلحة. (الهاين، 1980، ص. 35)

خرج أعيان مصراته لتوديعي حتى مشارف مدينتهم، ثم توقفوا وأخذوا يضمونني إلى صدورهم ويعانقونني عناقا حاراً راجين لي سفرا ميمونا ومعبرين عن حزنهم الشديد لفراقي لهم.

يقول جون ريمون: ((قد علمتني تجربتي هذه؛ أنه مهما تكن عظمة القوى التي تتهدد الشعب الليبي، فإنه من المستحيل عليها أن تقهره ما لم يستسلم لها في النهاية بنفسه، وأدركت كذلك أنه واجد الآن في دينه الإسلامي أعظم قوة يستند إليها في مقاومته للاحتلال الأجنبي، ومن ثم فإن أعدائه أن يتوقعوا منه مقاومة تقاس قوتها ومداها بمدى عمق إيمانه وبعقيدته.))

وفي هذا الشأن يشير علي الصلابي في كتابه الجمهورية الطرابلسية 1918- 1922، أن فكرة الجمهورية الطرابلسية كانت حاضرة قبل عام 1918، وينقل عن جون ريمون أثناء زيارته طرابلس الغرب عام 1912معلومات بحضور عدد من المثقفين من أمثال محمد فرحات مخاطبا: ((قل عنا إننا مواطنون يرتدون اسمالا ممزقة ويمشون حفاة الأقدام تماما كما كان يفعل جنود الثورة الفرنسية، ولكن لا تقل إننا متعصبون للدين ... إذا عن الحكومة التركية تتخلي عنا في هذه الظروف، لسوف تعلن الجمهورية الطرابلسية ، وستري اننا سنثبت للعالم أجمع أننا قادرون على الذود عن حمى أرضنا.)) (الصلابي، د. ت، ص. 19)

الخلاصة والاستنتاجات:

قام الصحفي دون ريمون بزيارة عمل إلى ليبيا استغرقت 123 يوماً، زار خلالها مدن الساحل الليبي وأرسل تقارير صحفية إلى المجلة التي ارسلته موفداً لها نشرت بها، ومن خلال ما نشره يلاحظ أن الصحفي اتسم بالموضوعية والحيادية والدقة فيما كتب، مما كان سببا في شن الصحف الايطالية عليه هجوماً شرساً.

من خلال ما سبق يلاحظ معرفة الليبيين بأهمية الصحافة وما تكتبه، ومدى تأثيرها في الرأي العام في أوروبا، ويتضح دلك من خلال حسن استقبالهم وتعاملهم مع المراسل الحربي للمجلة.

اما ما كتب عن مدينة مصراته فيمكن تحليله واستنتاج الاتي:

- يقول أنه كان يسمع عن شجاعة وبسالة أهل مصراته في كل مكان مر به في طرابلس الغرب، وعند اجتماعه بهم وجد أن ما قيل في حقهم قليل، ورغم أن الاتصالات كانت شبه معدومة في تلك الفترة ومع هذا كانت تتناقل أخبار عن شجاعة وبسالة أهل المدينة.
- يصفهم بأنهم مقاتلو شديدو المراس وأنه وجدهم في الخطوط الامامية المحاربة في مناطق مختلفة من الغرب الليبي ولم يكن دورهم مسانداً أو مساعداً مادياً فقط، بل وجدهم مقاتلين في الخطوط الأمامية.
- يسهرون على راحة المدينة وتأمين وحماية شواطئها ليل نهار، وهذا يعني أن العمل كان منظم ويتسم بالتناوب والحراسة المشددة للسيطرة على المدينة ومنع أي خروقات وتأمين وحماية الساحل نظراً لأهميته.
- عند دخوله إلى المدينة وصف شوارعها بالواسعة، ووصفها بأنها اتخذت طابعاً حديثاً بعض الشيء.
- يشيد بلباس وحسن مظهر أعضاء المجلس البلدي، حتى أنه يشبههم بأناقة بعض المدن الفرنسية.
- أشار في حديثه إلى درويش كان يتحدث إليه بحضور عميد البلدية مما يعني أنه لم تكن هناك حواجز بين المجلس البلدي وعموم المواطنين يحيل دون التواصل أو الحديث مع المسؤولين.
- عند توديعه أهدى له عميد البلدية من قوت أهل البلد المتمثل في اللبن والجبن المحلي، كما ثم إهداء بندقية إلى المترجم المرافق له وكانت من غنائم الحرب من الايطاليين، وهي تحمل مدلول عسكري وسياسي.

المراجـــــــــــــع:

- الزاوي. الطاهر احمد.(2004).جهاد الابطال في طرابلس الغرب. دار المدار الاسلامي.
- الهاين. مصطفي سعد (1980). أثر العامل الديني في الجهاد الليبي. مطبعة راس طبلية.
- الصلابي. علي محمد (د. ت). الجمهورية الطرابلسية 1918- 1922 أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر. د. ن.
- القمودي. مراد ابوعجيلة.(2009). حكومة مصراتة الوطنية وأثرها على حركة الجهاد في ليبيا.
- رايت. جون (2013).انبثاق ليبيا. دار الفرجاني.
- ريمون. جورج (1983). من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا. المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان.

1 - الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، الطبعة الرابعة، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2004.
2 - جون رايث، انبثاق ليبيا، ترجمة الطيب الزبير الطيب، الطبعة الاولى، دار الفرجاني، طرابلس، 2013.
3- جورج ريمون، من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا 1912، محمد عبدالكريم الوافي، الطبعة الثانية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس، 1983.
4- مصطفي سعد الهاين، أثر العامل الديني في الجهاد الليبي، الطبعة الاولي، مطبعة براس طبلية، تونس، 1980.
5- مراد أبوعجيله القمودي، حكومة مصراته الوطنية وأثرها على حركة الجهاد في ليبيا، 1914- 1922، مكتبة الزحف الاخضر، مصراته، 2009.
6- علي محمد الصلابي، الجمهورية الطرابلسية (1918- 1922)، أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر، د . ن ، د . ت.